

سیاسة المسلمین السابقین و اھمال المسلمین الشوری

الاستاذ الدكتور حسین آتای

كلية الالهیات جامعة أنقرة - تركية

اثر القرآن في اقامة الحضارة الاسلامیة

فان القرآن الکریم هو کتاب وحید في تاریخ العالم الانسانی بانه قد اتى و اشاد حضارة عالمیة بالعنوان الذي سماه هو الاسلام بین الثقافات و الادیان العالمیة حیث لا نجد ای کتاب لعب هذا الدور العظیم طوال التاریخ البشري. لا نرى حضارة عالمیة باسم بونیة ولا کونفوشیة ولا حضارة عالمیة یهودیة ولا نصرانیة

ولکن حضارة اسلامیة عالمیة اقامها الاسلام كعنوان للدين. و نرى کثیرا من الکتاب المفکرین والفلاسفة من المسلمین و غیر المسلمین يتکلمون عن الحضارة الاسلامیة، وهناك من بحث فی کیفیة بدء الحضارة الاسلامیة واسباب ظهورها المادیة وان الحضارة الیونانیة العالمیة وصلت الی اوجها عند آرسطو و بموت آرسطو بدأ خمولها وجاءت النصرانیة تذبذبت بین اطلالها ثمانیة او تسعة قرون لم تجمع شملها ولم تَبْنِها من جدید. وجاء القرآن الکریم بدين الاسلام وشرع فی جمع علوم ومعلومات الحضارات و الثقافات السابقة واعتجنها وانضجها ولاکها وتملکها ثم مزجها وركبها. و اشاد حضارة بنوع جدید غیر سابقة ، وفلسفة جدیدة غیر مسبوقة ولكن کیف عمل هذا العمل الکبیر. ولي مقال کیف بدأت الحضارة

الإسلامية ولكني الآن أريد أن أنظر إلى تاريخ المسلمين الأوائل السابقين إلى طلوع حضارتهم والتفكير الإسلامي السياسي.

فإن الرسول محمد (ص) سعي واجتهد في أشادة مجتمع انساني عادل متساوي الافراد في الحقوق الانسانية ومعايشتها معا سواء بسواء بازالة العوائق العائلية القبلية المتميزة الطبقية بوضع الاسلام كدين مستسلم للحق بالصدق والامانة وبجعل الاسلام عنوانا للهوية العليا بين افراد الناس في المجتمع الاسلامي؛ وكل احد يتعاون مع الآخر بانه مسلم و عندما كان يسأله من انت؟ ويقول: انا مسلم وطبق الرسول (ص) هذه الفكرة دون هوادة اتباعا لقوله تعالى:

ومن احسن قولا ممن دعا الي الله وعمل صالحا وقال انني من المسلمين (فصلت 33/41) وهذه الآية الغت و محت الامتيازات العائلية والقبلية والطبقية واقامت مقامها الهوية الاسلامية الانسانية واصبح السيد يصلي و في جنبه عبد من العبيد والغني بجنب الفقير دون فاصلة بينهما لانهما اصبحا اخوين والقائد مع جندي¹

و بعد وفاة الرسول (ص) مباشرة انتكست القبلية اولا بالقبلية القرشية تحت شعار حماية الاسلام وحاول منهم من رأي نفسه جديرا واهلا بقيام تدبير امور المسلمين السياسية والاجتماعية لاقامة العدل واحقاق الحق علي حسن النية² وسموا رئيس الدولة خليفة رسول الله (ص). اما الاصوليون بعد ذلك فناقشوا الخلافة بانها لا تكون خليفة لرسول الله (ص) لان الرسول كان ياخذ الوحي وله حق تفسيره وبيانه والرجل الذي يخلف النبي (ص) معناه انه يقوم مقام الرسول بكل معانيه وهذا لا يجوز شرعا وانما الخلافة لا تكون تامة المعني وانما

¹ مع الاسف نري في بعض البلدان الاسلامية ان هذه الامتيازات سارية، اخذت مكانها في المجتمعات الاسلامية منذ زمن بعيد.

² وهذه الروية "اهلا للادارة" تتضمن معني بانه لا يري لغويه نفس الاهلية و لذلك بدأ الكفاح للعرش والرئاسة.

اذا خلف الرسول، يخلفه فقط في تدبير امور المسلمين الدنيوية حسب شرع الله تعالى. ولذلك الغي عمر بن الخطاب تسمية الخلافة وسمي نفسه امير المؤمنين ولا اعرف السبب لاعادة تسمية الخليفة بعد ذلك. واصبحت الخلافة مقاما مقدسا ومرتبة دينية عظيمة. وعندما قامت الثورة ضد عثمان بن عفان طلبوا منه ان يستقيل او يتنازل عن الخلافة اجابهم بانه لا يخلع لباسا يلبسه الله تعالى اياه. وفي الحقيقة لم يلبسه الله تعالى الخلافة ولم يخلقه ليكون خليفة وان الناس هم انتخبوه لرئاسة الدولة او بتعبير عمر بن الخطاب امير المؤمنين. و بهذه الكلمة وامثالها نري الناس كيف يستغلون الكلمات لغير وضعها لمصالحهم الشخصية حتي يومنا هذا.

فان عثمان بن عفان (ر) استشهد بين يدي منتخبيه ولاحراك بهم لانقاذه من ايدي الثوار. و ان كان الكتاب يتعرفون علي سبب الثورة والقتل ومع ذلك لا يبحثون عن سبب الاسباب وهو اعمق مما بدا للناس. لانهم خالفوا مبدء الشوري في القران المامور به رسول الله (ص) ليكون اسوة للمؤمنين. ولم يفكر ابو بكر ولا عمر ولا عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنهم بتتظير الشوري والعمل بها الا انهم شاوروا و تشاوروا الاصدقاء والاحباب كانها شوري ولكنها كانت صورة فقط. وعدم اتباع الاصحاب الكبار من المؤمنين السابقين في الاسلام للشوري؛ ولم يكن اتباع الشوري سنة وقانونا شرعيا في الاتباع ولذلك تركت الشوري حتي اليوم، وبعد اربعة عشر قرنا لا يعرفونها ولا يريدون ان يعرفوها وينظروها ولا يدرون قيمتها الادارية والاجتماعية و السياسية مع ادعائهم بانهم يؤمنون بالقران الكريم لفظا.

تقديم القبيلة القرشية

القبيلة القرشية التي اصبحت لها السلطة العليا انصرفت عن سنة الرسول (ص) في التسوية بين افراد المسلمين دون التقات ونظر الي قبيلة وشعب ونسب و حسب واب وام

ولسان ولون الا ان القرشية جعلت نفسها واعطت افرادها اعلي درجة في الدين والسياسة والادارة حتي في الامور الفردية الشخصية كالنكاح.

وقسمت القبيلة القرشية بين المسلمين اولا بين القریش والعرب ثم بين العرب وغير العرب وبين السادة والموالي وهم من الدرجة الثانية او الثالثة في المجتمع الاسلامي. ثم قسمت مرة اخري المسلمين بين سني وشيعي الي يومنا وجعلت المسلمين قطبين في المجتمع والدين ليتطاحنا فيما بينهم وبذلك تصبح القرشية قاضية و حاكمة حتي لا يرفع اي القطبين رأسه ضد الحكام.

و انشقت القرشية فيما بينها للجلوس علي عرش الحكم والقضاء وباشروا الجدل والمعركة للوصول الي السلطة وخاصة بين الذين كانوا من الاولين السابقين للاسلام والصادقين للدفاع عنه بحماسة دينية خالصة. وما كان يشك احد في اخلاصهم للتمسك بالاسلام سابقا ولكن عندما سنحت لهم الفرصة للصعود علي عرش الحكم وقعوا في شبكة الامور والحوادث السياسية وخاضوا فيما لا يرضاه لهم الاسلام وقاتلوا وقوتلوا من دون ان يكون لهم اسباب مبررة شرعية ولكن هذا النزاع والجدال والحرب في هذه المرة لم يكن للدفاع عن الاسلام، لانهم ما كانوا يتهمون الذين جادلوهم وقاتلوهم بدينهم والقریش المتقاتلون لم يطعن بعضهم بعضا في الدين وانما كانوا يتهمون غير القریشي. اذا كان مخالفا في الرأي، بالردة و كان قتاله للدفاع عن الدين حينئذ عندهم و هذا كان غلطا غير سابق.

ثم اقتسم القریش المسلمين تحت عنوانين الخلافة حيث اعطوا لها القدسية الالهية وعنوان الامامة حيث اعطوا لها العصمة النبوية وادخلوها في اركان الايمان. وبعد الف وخمسمائة سنة اذا التقى الشيعي والسني في وقتنا الحالي في مجلس او طريق، كل واحد يَكُنُّ في سويداء قلبه دغلا اي فسادا وسوعنية في الاخر وهما مؤمنان بالقران والرسول محمد (ص) ويوحدان الله تعالى بالصدق والامانة. والسني يخطر بباله ان الشيعي يؤمن بالامامة

وهي غير صحيحة و في ايمانه ذلك خطأ و الشيعي يخطر بباله ان السنى لا يؤمن بالامامة كركن من اركان الايمان ولذلك ايمانه ناقص. ولا يصلى احدهما خلف الآخر. وهكذا بين المذاهب اهل السنة ومع ذلك كلهم يصلون نفس الصلاة المأمورة بها في القران. واما انا بحمد الله تعالى فلست سنيا ولا شيعيا واصلى خلف كل من يصلى صدقا لا نفاقا، كما يصلى البعض الصلاة قضاء بعد صلاته نفاقا خلف المخالف المذهب بسبب من الاسباب لانه يرى ان صلاته غير جائزة و عند ما كنت مدرسا في جامعة الملك فهد للبترول و المعادن دعانا احد زملائنا الى ضيعته و كان معنا استاذ شيعى ولم يصل معنا عندما قمنا الى الصلاة ذهب ليتوضأ ثم جاء و صلى منفردا ووضع امام جبهته تربة مجمدة بقدر علبة كبريت.

عندما اصدرت فتوى بتكفير آية الله الخمينى واصحابه في الحرب بين ايران والعراق بضغط السياسيين قال احد اساتذة العرب السعوديين و كان من الطائف كيف يمكن للمسلم ان يكفر اية الله الخمينى واصحابه فغضب بغضب شديد. ثم اضاف انا نرى اخواننا الشيعيين الايرانيين عندما يأتون الى الحج الى مكة المكرمة يصلون و يسبحون ليل نهار وتسيل الدموع من عيونهم خشية لله تعالى. وهذا هو من الذين فاقوا المذهبية القاتلة المفرقة.

وكنت مع طلاب المسلمين في مصيف ميشيكان في امريكا للندوة الصيفية بشاطئ بحيرة ميشيكان، صليت الصبح في غرفتي وتمشيت الى شاطئ البحيرة وجدت شابة وشابا من اخواننا الايرانيين سألتهما من اين ياتيان؟ قالوا لي صلينا صلاة الصبح في القاعة. حينئذ هل يمكن لمن يؤمن بالقران الكريم ان يتهمهما بالضلالة في اسلامهما بانهما شيعيان.

و بامثال هذه المشاهدات رأيت ان كل ما هو موجود في الكتب ضد المذاهب بتكفير بعضهم بعضا وتضليل بعضهم بعضا انما هي خرافة و تفرقة بين المسلمين. بدأت اصحح ما اراه خاطئا في مذهب آباء و اجدادى الموروثة ولا اجد في ذلك صعوبة نفسية وصلت الى هذه الفكرة و العقيدة عندما بدأت افهم القران بنفسى دون الرجوع الى ما قاله الاولون السلف.

لأن التعصب المذهبي و تعصب الطرق الصوفية اصبحوا ديننا في داخل دين ويتججون ويتقارون به على الآخرين.

وهم السياسيين والقادة اخضاع الناس واطاعتهم مهما كان الامر، ان لم يكن بالاقناع والخطب المعسولة و بالجبر والضغط والتضييق حتى و بالقتل دون انصاف. ومعاوية بن ابي سفيان بهذه الطرق وصل الى الحكم ثم ابنه يزيد اوقع باهل المدينة. وقعة حرة واقم بعد الهجوم على المدينة وقتل الانصار ومن بينهم ثمانون من اصحاب الرسول (ص) وعشرة آلاف من عامتهم و ألف وسبعمائة من وجوه الناس ولم يبق بدرى بعد ذلك³ ولم يستطع احد الصلاة في مسجد المدينة ثلاثة ايام.⁴

وقبل عشرة سنوات دعانى الاستاذ الدكتور عزت دوغان ابو بعض العلويين في تركية الي فتح بيت الجم لهم في سيواس وقلت ذلك لاخواني الاساتذة في الكلية وصوني بان لا اذهب لان السنين سيتهموني باني اصبحت علويا. اجبتهم: ساقول لهم اشتغلت اربعين عاما لارشد السنين الي الاسلام ولم اوفق في ذلك. لعلي اهدي العلويين الي الاسلام. وحكيت هذا للعلويين في سيواس وتبججوا بذلك و فرحوا.

وارى انه من المناسب ان اذكر بعض اخطاء عمر بن الخطاب السياسية كما اشار اليها الاستاذ جمال البنا اخوالحسن البنا الاصغر منه سنا تأييدا لما فكرت سابقا⁵ ويلاحظها كل من انعم النظر فيها على حياض دون متلبس بالمذهبية. كنت فكرت في كيفية تصحيح الاغلاط والاطايات الصادرة من السلف الصالح او الطالح لانها حاكمة ومسيطره ولها سلطان قاهر على افكارنا واعمالنا واطوارنا طوال التاريخ وفي زماننا ايضا.

³ جمال البنا، الاسلام دين و امة وليس ديناً ودولة، 135، القاهرة، 2003، يناير.

⁴ شذرات الذهب في اخبار من ذهب، ابن العماد الحنبلي 146/3.

⁵ حتي لا يرميني احد بالانحياز و بسوء النية باني وحيد فيما اقول.

من اين نبدأ اذا عكّرَ الماء وكدر واختلط بشئ فاسد في الانابيب لا يمكن تطهيره وتصفيته الا اذا عرف منبع الكدورة ومكان اختلاطه بشئ اجنبي. وكذلك اذا اردنا ان نصح خطأ فينبغي علينا ان نبحث عن منبعه وسببه ولذلك اذا قصدنا ان نشيد حضارة اسلامية جديدة من الضرورة ان نبحث في سبب التخلف والسقوط والانحطاط. وهذا يجرننا الى البحث في وجدان سبب انشائها، ثم كيف ضاع ذلك السبب ولم يستمر وكيف انفلت عن اذهان المسلمين وعقولهم.

١- عمر بن الخطاب عزل خالد بن الوليد لئلا يفتن بالناس، ولماذا لم يعزل معاوية ابن ابي سفيان من نفس السبب لان معاوية خدعه باجابة لبقة رغم انه كان يعلم طبائع الامويين، الا ان الانسان لا يبلغ الكمال ويستطيع ان يُخدع اذكي العقول⁶ لا شك كان خالد بن الوليد اخف وطأة من معاوية الاموى، اذا كان قد اصبح امير المؤمنين، بل كان اصدق منه للاسلام.

٢- عمر بن الخطاب اخطأ خطأ لم يتدارك، ولا يعفى عندما اختار ستة من القرشي لانتخاب امير المؤمنين ويقول الاستاذ البنا بدل ان يختار ستة لماذا لم ينتخب ستين. وهنا استعمل الجنس بين ستة وستين وانما قصده اكثر من ذلك في غير موضع.

٣- ولماذا لم يضع عمر مجلسا استشاريا من المهاجرين والانصار وبقية العرب واذا عمل ذلك لتغيير الحال⁷ واقول حتى من غير العرب ايضا.

٤- يقول الاستاذ جمال البنا: ويستشعر الانسان الاسى لان الانصار ظلموا حقهم ويحز في النفس ان الأرستقراطية القرشية افسدت على الدول الاسلامية حيث فات ابا بكر وعمر عندما انتهى اليهما الامر لم يشركا الانصار كوزراء او مستشارين او اعوانا. ويدل

⁶ البنا، نفس المصدر، 63، 68، 92.

⁷ البنا، نفس المصدر 89.

هذا ان الحاكم مهما كان عبقريا ومخلصا فانه يعجز عن ان يلم بكافة ابعاد واقطار العملية السياسية. والشئ الوحيد الذى يعالج هذا النقص ان تكون بيئة الحكم حرة بحيث يمكن للآخرين ان يعرضوا وجهات النظر التي شغل عنها الحاكم بالعديد من شواغله.⁸

ليست هذه الاخطاء كافية لعدم بناء السياسة السديدة. والمسلمون اليوم لا يعرفون كيف ينتخبون رئيس الدولة حسب شريعتهم ولا يفكرون فيها ايضا وانما يأخذون الدساتير والقوانين من الاجانب مباشرة وصدفة. ولا يبررونها حسب شريعاتهم وتقاليدهم الموروثة التي يقيمون الدنيا لاجلها ويقعدونها ويجعلون مواطنيهم في بلبله من العقيدة والعمل في صحة هذه القوانين او غير صحيحة اذا ما قيست بما في الدين والقران.

لم يكن هناك اي سبب مبرر شرعي لطلحة وزبير ليسيرا الى البصرة ويحاكما على ابن ابي طالب امير المؤمنين. ليس ذلك الا لان يكون لهما الامر في الحكم. كما افاد ذلك ابو بكر في مرض موته عندما زاره عبد الرحمن بن عوف: انى وليت امركم، فلكم ورم انفه، يريد ان يكون له الامر.⁹ واتضح ان كل واحد كان حريصاً على ان تكون له الولاية. وعجب ابو طلحة الذى امره عمر بحراسة المجموعة، لانه كان يتصور انهم سيدافعونها اي سيدفع كل واحد منهم بالولاية الى الاخر ورعا وايتاراً. فاذا بهم يتدافعون عليها اي يريدوا كل واحد لنفسه.¹⁰

ثم ما هي الاسباب المبررة المشروعة التي ساقفت معاوية بن ابي سفيان للسير الى صفين للحرب مع على بن ابي طالب وهو امير المؤمنين؟ وتولى معاوية بن ابي سفيان رئاسة

⁸ نفس المصدر 49.

⁹ نفس المصدر 106.

¹⁰ نفس المصدر 83.

الدولة، وقد وصفه اهل السنة على رواية حديث سفينة¹¹ الملك العضوض لانهاية الخلافة الراشدة. ومع كل هذه الامور المخالفة لصحيح الاسلام جعل اهل السنة الخلافة بعده القيادة المقدسة وبها تصلح الامة تجاه عقيدة الامامة الكبرى المعصومة عند الشيعة.

الاستاذ جمال البنا مع التزامه الحرمة والاحترام لعثمان بن عفان كاصحاب الرسول الاخرين رضى الله تعالى عنهم. لا يتماسك ان لا يقول فيه: فقد اسلم عن صدق وحب وان لم ينزع هذا الايمان من نفسه حب الدنيا والاستمتاع بالحياة. واقتصرت مساهمته فى نصر الاسلام على التبرع بالمال دون الجهاد؛ وان كان الجهاد بالمال قد لا يقل عن الجهاد بالنفس.¹²

ترجيح المصلحة الفردية على مصلحة المجتمع

ويمكن ان يفهم هذا ايذانا بالانتقال من الموضوعية الى الذاتية. التي هي طابع الملك لان عثمان رغم سابقته ومزاياه كان يحمل وراثته تجعل الذاتية فيه تغلب الموضوعية.¹³ وهنا نرى ان الاستاذ البنا قد اتى باصطلاح مستحدث هو الذاتية والموضوعية وهما مفهومان الآن بصورة جيدة؛ ويمكن بهما بيان الامور الذاتية لتفيد مصلحة الفرد والانانية. وبالموضوعية لتفيد مصلحة المجتمع عامة وهي دعوة القرآن الكريم.

بينت مقالتي السابقة بان السياسيين كانوا يظلمون الناس ويفسدونهم لان الاسلحة بايديهم والجنود المسلحة تحت تصرفاتهم، يطلبون من الناس والعامه الاطاعة والانقياد

¹¹ عن سفينة قال سمعت رسول الله (ص) يقول: الخلافة ثلاثون عاما ثم يكون بعد ذلك الملك العضوض (البنا 102؛ عون المعبود، 397/12، الترميذي، الفتن وهو غير صحيح عند ابي بكر بن العربي، العواصم، 102، 210، محمد خطيب اعلی، على ثقافة المسلمين، 34، انقرة، 2004، بالتركية.

¹² البنا، 82.

¹³ البنا، 78.

والخناع والثناء والشكر جبرا دون رضاهم ولا يتسامحون للاعتراض على اعمالهم ومفسداتهم، ولا يعطون حرية الرأي والتفكير. ولذلك يضغطون على العلماء ويطلبون منهم الافتاء على اعمالهم حسب اغراضهم الجائرة والمنحرفة ولافادة تلك بعبارة وجيزة الاستاذ البنا يضع هذه الكلمات واكثرها في بيان واضح: ان السلطة تقسد العقيدة (الايديولوجية).¹⁴

وتفريعا لذلك في موضع آخر عندما حلل اقوال وافكار سيد قطب قال: ولو انتصرت دعوة سيد قطب رحمه الله لاجدت اسوء الطغاة الذين يفرضون ضيق الافق والغباء والتعصب و "اللاعقل" على الناس جميعا.¹⁵

فاضيف الى هذا ان الدعوات الدينية والجماعات والايديولوجيات كذلك جميعا، وكان احد عنوان مقالاتي فان الدولة لا تستطيع ان تشيد وتبنى حضارة وانما الامة هي التي تشيد حضارة وتقيمها اذا منحت لها حرية التكفير والعمل كاملة. وحجتى لها تاريخ الاقوام والامم المتخلفة مسلمة وغير مسلمة سواء بسواء.

انشقاق القریش فيما بينها وتدافع الصحابة الكبار المسلمين المؤمنين السابقين منها حتى وصلوا الى اراقة دماء المسلمين بجزارة، جلب استياء عامة المسلمين المخلصين للايمان بالقران الكريم وبالرسول (ص) وقعوا في حيص بيص واختلط عقلهم بهذه الوقائع وانقسموا في الحكم الى قطبين: قطب لم يفكر كثيرا ولم يتعمق في فهم القران وفقهه اصبح سهلا عليهم ان يحملوا ذلك على قضاء الله تعالى وقدره. لانهم فكروا ان هذه الوقائع لا يمكن ان يقع بين المؤمنين الا باجبار قوة عليا وهو ان يكون الله تعالى القاهر الجبار ولم يمكن لهم الاجتناب عن ارتكابها لان القران لا يسمح لها باي صورة من الصور. وقطب آخر اجال فكره وعقله في القران من اوله الى آخره حكم بعد ذلك: ان الله تعالى وهب للانسان عقلا

¹⁴ البنا، 113 في غير موضع.

¹⁵ البنا، 279.

وفقها وارادة وجعل الانسان مسئولا عما يعمل بارادته ولا حق لهم ان يفروا ويتاولوا العبارات الواضحة حسب ميولهم النفسية واغراضهم الشخصية وقالوا لا قدر ولا قضاء مكتوبا ومفروضا على الايمان والكفر والعمل الصالح والسيئ وليس كل هذا الا بمسئولية الانسان.

وكان اي واحد من عامة الناس وعلمائهم يرى ان المسئولية الكبيرة كانت على عاتق الامو بين من الامور التي ساقطت الناس المصلين بين أعين الناس وسمعهم الى اغتيال عثمان بن عفان وقاتلوه، وقتلوه وهو خليفته في المدينة المنورة ولا حراك لمن انتخبه خليفة ولم يحاول احد الدفاع عنه، رجعوا الي القران الكريم بعقولهم الحرة وجدوا ان الانسان مكلف و مسئول عن كل ما يعمل به بارادته.

الملك العضوض

ولما استتب الامر لمعاوية كامير المؤمنين او كالمك العضوض حسب حديث سفينة قام بتوريث ابنه يزيد للولاية بعده ولذلك اثبت انه الملك العضوض ليس خليفة. لان الخلافة اذا كانت جائزة لا تكون فيها الوراثية. واصبح الملك وراثيا تحت يد وسيطرة الامويين، ومع ان معاوية بذل جهدا واستخدم الارهاب والاصطناع والرشوة والسم لكي يمكّن لابنه الوراثية فشل بعد موت يزيد. واثبت المجتمع الاسلامى انه لا يمكن ان يقبله لان العهد كان لا يزال قريبا بالخلافة الراشدة مما جعل معاوية الثانى ابن يزيد يعتزل ويدع الامر لبني اميه.¹⁶

ولكن سينات معاوية بن ابى سفيان لم تنته باعتزال حفيده معاوية الثانى وانتقل أمر الولاية لبني امية ثم استمرت الملكية من عائلة الى اخرى حتى اليوم وجلبت الكوارث العائلية

¹⁶ البنا، 137.

في الحرص والجشع طوال التاريخ الاسلامي علي العرش وضعت سلطة ورفعت سلطة حتى تضععت قوة المسلمين ودولتهم بسبب ذلك الجشع على الحكم وتهدمت الدولة الاسلامية في الاندلس ولم يبق فيها عائلة اسلامية صغيرة بعد الحكم فيها ثمانمائة سنة. والبلدان الاسلامية الاخرى بالملكية والوراثة تحطمت وانحطت ونزلت الامة الاسلامية الى وضعها الحالي من الشرق الى الغرب ومن الشمال الى الجنوب.

ورجل معاوية ويزيد زياد بن ابيه قال في خطبته البتراء التي لم تبدأ ببسمة أو بحمد الله: حرام على الطعام والشراب حتى اسويها بالارض هدمًا واحراقًا. حتى يقول منكم الرجل اخاه "أنج سعد فقد هلك سعيد" ايها الناس انا اصبحنا لكم ساسة و عنكم زاده نسوسكم بسطان الله الذي اعطانا و نذود عنكم بفيئ الله الذي خولنا، فلنا عليكم السمع والطاعة. وايم الله ان لي فيكم لصرعي كثيرة فليحذر كل امرئ منكم ان يكون من صرعاى.¹⁷

وجاء عبد الملك بن مروان جبار بني امية و الرجل الذي قال: "من قال لي اتق الله قطعت عنقه"¹⁸ وكان مع عبد الملك الحجاج فان خطبة الحجاج لا تقل عن خطبة زياد ويكفي ان يسمع الناس مستهلها: "انى لارى رؤسا قد اينعت و حان قطافها واني لصاحبها". ولم يتردد ان يطبق هذا لانه قد فرق جنده بين المصلين يحملون سيوفهم تحت اريدتهم.¹⁹

عطاء بن يسار ومعيد الجهنى يسألان الحسن البصرى ويقولان: يا ابا سعيد ان هؤلاء الملوك يسفكون دماء المسلمين وياخذون اموال الناس و يفعلون ما يفعلون ثم يقولون انما تجرى اعمالنا على قدر الله، فقال كذب اعداء الله متعلق عليه بهذا واشباهه.²⁰

¹⁷ البناء، 137، 136.

¹⁸ البناء، 137.

¹⁹ البناء، 137-138.

²⁰ ابو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة (213-276 هـ 828-889 م) المعارف 441، مطبعة دار الكتب 1960.

و الحجاج بن يوسف الثقفي والى العراق لعبد الملك بن مروان في ثمانين من الهجرة قتل خالد معبد الجهني لانكاره القدر بمعنى الجبر الذي كان يعتمد عليه الامويون وهو اول من انكر القدر بمعنى الجبر²¹ في ظلمهم وجورهم للمسلمين وفي سنة 105 هـ. (723 م) قتل غيلان بن مسلم ابو مروان الدمشقي بقولته بقدرته الانسان التي بها يكون مكلفا من اعماله سواء كان خليفة او امير المؤمنين او رجلا عاميا بلا فرق.

وفي سنة 128 هـ. (745 م) قتل جهم بن صفوان ووزيره الجعد بن درهم بمرور على شاطئ نهر بلخ بامر من سلم بن اهواز في زمان الدولة الاموية.

ليس قصدنا ان نحكي كل ما حدث في بداية ونهاية الدولة الاموية في سؤاتها او من حسناتها اذا كانت بالنسبة للدين الاسلامي ولكن نريد ان نقدم بعض الكوارث والوقائع التي صرفت الفكرة الاسلامية عن الاقامة للعدالة الاجتماعية وحقوق الافراد ومساواتهم بينهم دون تعصب لعائلة او قبيلة او شخص او حاكم او الى غيرها من الجور والظلم والتحكم.

واذا جئنا الى الدولة العباسية نرى عبد الله بن محمد ابو العباس او خليفة العباسية قد سمي بالسفاح (104-136، 722-754 م) وحكمه 132-136، 750، 754 م) لانه من سفك الدماء -ليس عارا على خليفة المسلمين- ان يسمى بسفك الدماء! وهو الذي سمي نفسه بالسفاح في اول خطبة: "انا السفاح المبيح والثائر المنيح" ويضيف الاستاذ جمال البنا: فاي شئ يرجي من مثل هذا؟²² وكان المؤسس الحقيقي لدولة بنى العباس هو ابو جعفر المنصور (95-158 هـ./714-775 م) خلافته: 136-158 هـ./754-775 م). وهو لا يقل جبروتا

²¹ الذهبي، ميزان الاعتدال، الرقم 8652.

²² البنا، 138.

ودموية عن عبد الملك ابن مروان وقد جرت في عهده دماء الطالبين انهارا²³ و ابو جعفر المنصور شيد بغداد ودعاها مدينة السلام وجعلها عاصمة له (145 هـ، 762 م)

عدم اتباع الشورى وتركها حتى الآن

كما هو معروف تاريخا ان في بداية الخلافة وبداية الدول الاسلامية لم تتشكل احزاب ولا جماعات مخالفة للحكم القائم. ومن الممكن ان يقال ان العلماء الاحرار المخلصين للدين والصادقين للاتباع في اقامة الحق والعدالة هم كانوا يقومون بالمخالفة بابداء رأيهم ضد قرارات حكومات وانكارهم ظلمهم.

نرى في عالم الفلسفة قد اشيد اسم سقراط كرجل متصلب في رأيه وبطل الحرية، وجاد بنفسه لذلك. وهذا امر ممدوح يستحق الثناء عليه وهو قد اقتناه. ولكن اذا جننا الى ابي حنيفة الامام الاعظم في الحقوق الاسلامية ولا نرى له صوتا دويا حتى بين من ينتسبون الى فهمه وفقهه و احقاق الحق للمجتمع الاسلامي والانسانى. لان المنصور ابا جعفر الخليفة العباسي اراد ان يشاركه، اى يجعله شريكا في ظلمه للناس وسفك دماء المسلمين، بتقديم الهدايا المرغوبة وتوظيفه بالقضاء وبامور الدولة ولم يقبل الامام واحدا منها وضرب باسواط وسيق الى السجن ولكن الامام الاعظم لم ينثن عن تصلبه امام الحاكم الظالم مهما اودي وعذب حتى قضى نحبه بالضرب بالاسواط في السجن. ألم يكن ان يتخذ هذا الامام الجليل نموذجا للدرس والبيان في صمود انسان ضد الظالم الجائر. واطن هذه الوقفة امام الظلم القاتل اشد واعظم درجة من سقراط لان سقراط اتهم ولكن الامام الاعظم لم يتهم بجريمة وانما قاوم بعدم قبول

²³ البنا، 139.

المنافع المقدمة له. واذا كانت الشورى على التطبيق، هل كان يمكن لأبى جعفر ان يظلم ابا حنيفة؟ وهلم جرى.

وانه من المملكن ان يقال ان عبد الله بن عمر (ت 43 هـ/692 م) اول من ادخل الحديث في الجدل بين الآراء في العقيدة واستعمل الحديث ضد من يقول بالمسئولية وينكر اعتقاد الجبر، في رواية عنه في صحيح مسلم وهو حديث آحاد يطعن في من لا يؤمن بالقدر. وهذه العقيدة كانت لتأييد الامويين عندما كانوا يدافعون عن ظلمهم وسفك دماء المسلمين واخذ اموالهم وافعالهم الخبيثة الاخرى. وعبد الله بن عمر اصبح اسوة في استخدام الحديث ضد المذاهب الكلامية عند ما انتشرت العلوم الدخيلة كما يسميها اهل الحديث ومن هذا حذوهم يعتبرونها غير اسلامية ومن جعلتها المنطق والفلسفة واصبحوا عدوا لدودا لمن يتعلم المنطق والفلسفة ووضعوا احاديث ضد المنطق والفلسفة وجعلوا الروايات والاقوال المأثورة علما خالصا ودينا حقا. وبذلك حرموا التفكير واعمال العقل.

وانصرف اهل الحديث والسنة عن القرآن وابتدعوا طريق غير طريق القرآن لان القرآن موجز القول ومحكم اللفظ ومتقن العبارة لا يستطيع الانسان ان يتصرف فيه ويلعب كما يشاء و يحب؛ كل احد يحاسبه ويجادله في فقه القرآن وادراك المقصود منه، و اهل الحديث لتحكمهم في القرآن وضعوا قاعدة عامة: ان السنة قاضية على القرآن وبذلك اصبح الدين الاسلامى عبارة عن معرفة رواية السنة. ان هذه القاعدة عندهم هي نبراس و ميزان لفهم القرآن والمحققون من العلماء وان كانوا قد خالفوا هذه القاعدة بقاعدة اخرى ان القرآن نبراس و ميزان لمعرفة صحة الحديث، ولكن جريزة المحدثين سيطرت عل اذهان الناس منهم الفقهاء ثم الصوفيون ثم المتكلمون، اعتمادا على الروايات الكاذبة للدفاع عن السلطة.

اهل السنة كمفهوم سياسي

وان اهل السنة والحديث افسدوا السياسيين والاداريين والقادة حيث اعتبروا الاعتراض والعصيان او الخروج عليهم كخروج عن الدين وجوزوا قتال الناس واخذ اموالهم من دون ان يوصوا القادة بالعدالة واحقاق الحق. وبهذه الصورة اصبح في العالم الاسلامي ثلاثة تيارات من الافكار والعقائد والمذاهب في العقيدة. الجبر وهو ان الانسان مسير من قبل الله تعالى وليس مكلفا مما يصدر منه من الاعمال، وهو مذهب الدولة الاموية، والثاني مذهب الحرية فان الانسان حر وله ارادة لما يقوم به من الاعمال، وهو مسئول امام الله وامام الناس من اعماله. والثالث الايمان بالقدر حيث قدر الله تعالى على الانسان ماذا سيعمل في حياته والله قدره وعينه قبل الولادة حتى الموت. وان كان لفظ القدر غير لفظ الجبر الا انهما يلتقيان في المعنى المقصود منهما و يمكن ان يميز بينهما، بان في الجبر لا قدرة ولا ارادة للانسان وهو مضطر ان يعمل من دون شعور، ولكن في القدر قد اعطي للانسان قدرة و ارادة لما يعمل نظريا واما عمليا فليس له اي دخل واي حركة فان الله تعالى هو يسوق الانسان بقدرته وتقديره السابق وبارادته تعالى يوجه ارادة الانسان الى عمل؛ و ارادة الانسان تابعة لارادة الله و قدرة الانسان تابعة لقدرة الله ومسوقة بسوق الله تعالى، وفي الواقع لا يوجد فرق بين الايمان بالجبر والايمان بالقدر في النتيجة.

ومع ذلك ان الايمان بالجبر والايمان بالقدر كان حكيمين وموجهين ارادة الساسة والقادة العليا في الادارة والامور الاجتماعية والحقوقية كان الجو العلمى في العالم الاسلامي قاتما مظلما وغير مفتوح للعلوم والتفكير الحر لاقامة حضارة جديدة. وانا من جملة من سأل هذا السؤال الاتى. وعلى ذلك فحينئذ كيف قامت هناك حضارة اسلامية ليس لها سابقة من نوعها في العالم الانساني وفلسفة اسلامية قائمة على اقدامها وتمايزة عن غيرها. فان الاستاذ الدكتور ديميتري غوطاس قد تطرق الى هذا الموضوع وحاول ان يجيب السؤال السابق واحاول ان الخص ما قاله كالآتى:

١- ان الاسكندر الكبير قد فتح غرب آسيا و شرق الافريقيا الشمالية قبل الف سنة الامبراطورية الساسانية الفارسية قد استولت على الاراضي الواقعة شرق الفرات التي اخذتها من يد الاسكندر الكبير. واما الامبراطورية التي اعتمدت وانتظمت على الدين المنزل على محمد (ص) فانها توسعت في مدة اقل من ثلاثين سنة بعد وفاة محمد (ص) حتى وصلت في سنة 732 م (114هـ) اكثر وسعة من وسط اسيا والهند الي الاندلس وجبال برنه بحيث ان قلب هذه الحضارة الجديدة بدأ ينبض من ايران والرافدين وسورية وفلسطين ومصر وهي مراكز الحضارة القديمة.²⁴

لا شك في أن الفتوحات العربية لها اهمية تاريخية لا يمكن استصغارها اول مرة اتحدت مصر والهلال الخصيب مع ايران والهند سياسة وادارة. والاهم منهما اقتصادا من جديد واكثر مدة من حياة الاسكندر الكبير. وقبل الاسلام مدة الف سنة كانت هناك فاصلة وانقسام بين الاقتصاديات والثقافة الكبيرتين وارتفعت الحدود التي قد اخطت بالنهرين الكبيرين.²⁵

٣- وهذا الوضع قد هيأ تداول الاموال المعمولة وغير المعمولة والصناعة، والافكار والاهليات المجربة والمناهج وانواع الآراء بصورة حرة بين هذه البلدان المتجاورة، وهذه الواقعة جات بعد خراب ودمار المنطقة اثناء الحرب بين الفرس والبيزنطية (570-630) حيث ان هذا الحادث قد زود اثارا طيبة في الشعور العميق القلبي.²⁶

٤- الاتصال بين الشرق والغرب انتج رفاها اقتصاديا كما يحرص ان التجارة تطورت تحت سيطرة الحكم للاسلامي و كانها قامت بثورة جديدة في الامور

²⁴ د. غوطاس، فكرة يونانية وثقافة عربية، يونانجه دوشونجه، عربجه كولتور، 28، تموز 2003، اسنانبول، كتاب باين اوى.

²⁵ نفس المصدر، 23.

²⁶ نفس المصدر 24.

الزراعية بازالة الحدود والعوائق بين الهند و بين شرق البحر الابيض وبهذه الصورة الثورة الزراعية انتعشت وزادت في الغناء اكثر من التجارة لان الطبقات الاجتماعية العاملة استفادت من هذا الغناء الزراعى كاصحاب الملاك والاراضي الكبيرة.²⁷

٥- ولعله من الاثر الكبير الحصول على اسرى الصينيين الذين ادخلوا صناعة الورق الى العالم الاسلامي بعد المعركة في سنة 751 (134 هـ).

٦- من اهم الانكشافات والتقدم ظهور الثقافة في الرافدين بعد الفتوحات العربية ورفع الحدود من ناحية، ومن ناحية اخرى بقاء مركز وبؤرة تمزق الثقافات ومنازعاتها ونضالها التي هي كانت نصارى البيزنطية والاورتودكسية القنسطنطينية خارج دار الاسلام. والجماعات الاخرى التي اجتمعت تحت حكم الدولة الاسلامية المحايدة كانوا يتبادلون الثقافات ويشتركون في المجالس العلمية. وهكذا بتجريد السياسة البيزنطية قد حما الاسلام الجماعات النصرانية الاخرى والاهالي الذين اصبحوا الهلنية الاغريقية.²⁸

٧- بفتوح الاسلام هذه المراكز المذكورة كلها قد وحدث سياسة وادارة واهم من ذلك العلماء الموجودون في هذه المراكز قد استمروا في اعمالهم العلمية ولم يكونوا يشعرون بالقلق من ان يكونوا من اديان مختلفة متعصبة في العلاقات بينهم وهكذا ظهر علماء عالميون في انحاء المملكة وها هي بعضهم.

من نصيبين سويروس severus (ت 666) كان يعرف اليونانية السريانية الفارسية و يعقوب من حران (ت 108) كان ممثلا النصرانية الهلنية.

²⁷ نفس المصدر 24.

²⁸ نفس المصدر، 25.

وثأوفيلوس Theofilus (ت 785) كان يعرف اليونانية والسريانية، البهلوية (الفارسية الوسطي) وكان كذلك مطلعاً على المصادر الهندية، كان من حران وكان مستشاراً للمهدى في العسكرية وكان منجماً في البلاط.

وهؤلاء العلماء و امثالهم بعد الفتح الاسلامي بازالة الحدود والعوائق السياسية والدينية كانوا يمثلون الحياة العلمية وبمعرفتهم لغات كثيرة كانوا يطلعون علي الكتب مباشرة دون حاجة الى الترجمة.²⁹

٨- والثورة العباسية وتأسيس بغداد ونقل العاصمة من دمشق الى بغداد و امثال هذه الاسباب قد غيرت ثقافة الامبراطورية العربية كلياً وفي بغداد بعيداً عن دمشق المتأثرة بالبيزنطية تشكلت البيئة الكثيرة الثقافات من اجناس مختلفة.³⁰

٩- المشكلة التي واجهها اوائل العباسيين السياسيين والاداريين وخاصة ابو جعفر المنصور اخذ على عاتقه باقصى قوته ان يوفق ليس فقط بين المنازعين السابقين له وعلي الخصوص بين الجماعات المختلفة المصالح الذين اشتركوا في انفاذ غاية العباسيين، ولكن كل لأمله الخاص، علاوة على ذلك كان ينبغي ان يصل الي المطابقة او الموافقة على مستوى السياسة والعقيدة. المنصور وخلفاؤه بجنب توفيق المعارضين السياسيين، كان عليه ان يثبت مشروعيته امام الجماعات المفترقة ولذلك كان الاجدر بهم ان يهتموا بشعور هذه الجماعات العقدية. ومن هذه الناحية كان من الضروري ان يطمئن الحزب الايراني الذي كان له اكثر تأثيراً في اقامة الدولة العباسية وكل هذه الجماعات قد ادركوا في النهاية الزردشتيون الايرانيون لا رجعة الى الوراء بعد الفتوحات العربية.³¹

²⁹ نفس المصدر، 21، 27.

³⁰ نفس المصدر، 30.

³¹ نفس المصدر، 38، 39.

واكتفي بذكر هذه الاسباب المهيئة لحضارة الاسلام وهي علل مادية في تعبير ارسطو. وهي الجغرافية والاجتماعية والتجارية والسياسية والثقافية الادبية والبيئية والتاريخية وفي الحقيقة هي علل مادية مهيئة للانسان ليدرك بها الغاية التي يقصدها. والعلة الغائية هي التي تسوق الانسان برغبة شائقة. ومن دون الغاية لا يتحرك الانسان وان تحرك فلا يحسن العمل الذي يقوم به. العلة الغائية: وهذه العلة موجودة في كل حي ومن دونها لا يستطيع ان يستمر في الحياة تبدأ من النباتات وتدرج من الحيوانات وتصل الى اقصاها في الانسان. فان القرآن قد ازال كل التمايزات والاختلافات القبلية والايولوجية والعقدية ليجعل افراد الناس سواسية في الحقوق والمناسبات والعلاقات بينهم. وانما وضع القرآن تفرقة بين افراد الخلق وتمييزا بينهم بصفة العلم. اولا بين بوضوح ان هناك فرقا بين من يعلم ومن لا يعلم. وهذا هو نوع ضربة علي مساواة الخلق ولذلك قال تعالى:

امتيازات الناس بعضهم عن بعض

هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون انما يتذكر اولوا الالباب.³² واصحاب العقول نوات لب يفقهون هذا، وفي هذه الاية مبدئان المبدء الاول الذي لا يعلم لا يساوي الذي يعلم. والمبدء الثاني هو عدم التسوية هو بالعلم فقط. ولكن من يعلم هذا الفرق انما من هو صاحب عقل نافذ وفعال. ولتأييد هذا المعني اتي بآية اخرى:

شهد الله انه لا اله الا هو والملائكة واولوا العلم قائما بالقسط.³³

وفي هذه الاية رفع الله صاحب العلم بدرجة الملائكة لانه ذكر بعد الملائكة بنفس العمل وهو الشهادة بتوحيد الله. ولكن الانسان قد يقول بكلمة الشهادة من فيه وقلبه غافل عما يقول، ولذلك قد اتي بآية اخرى بقوله تعالى: انما يخشى الله من عباده العلماء.³⁴

³² الزمر، 9/39.

³³ آل عمران، 19/3.

فان هذه الاية تجعل الانسان ان يكون صادقا وصميما في خشية الله من سويداء قلبه وشعوره الباطنى حيث لا يطلع عليه غير الله. والانسان لا يصل الى هذه المرتبة عند الله الا بالعلم الخالص. وهناك اية اخرى يصير بها الانسان الي اعلى درجات حتى بين الجماعات المؤمنة.

اذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا ففسح الله لكم.

واذا قيل انشزوا فانشزوا

يرفع الله الذين امنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات.³⁵

وهذه الاية تربي وتعلم الادب للمؤمنين عندما يجتمعون في مجالسهم كيف يجدر بهم ان يعاملوا العلماء لأنهم قد اوتوا درجات و بين كل درجة مسافة سبعين او اربعين سنة بالخيل الضامر كما روي عن ابن عباس او ابي هريرة. وهذه الدرجات المذكورة درجات عالية في المجتمع المرموق بها لحث الناس الى تحصيل العلم.

وهنا لا حاجة الى ايضاحات زائدة ولكن ينبغي ان نتنبه الى حض الناس وترغيبهم في السباق الي اقتناء العلم سوية دون تمييز بين افراد الطبقات العالية والطبقات السافلة، ولا امتياز للسيد علي عبده وانما كلهم مدعوون الي السباق. ومن يسبق وينجح في السبق هو يحصل علي هذه الدرجات العلمية وبترفع علي الخلق بكسبه وسعيه وتعلمه وفقهه لا يباري. فان كل من قرأ وقرأ القرآن يحصل في ذهنه هذه المعاني ويتسابق باقصى قوته ويبدل كل جهده. هذه الايات وامثالها قد هذبت اذهان الناس وربت عقولهم جميعا غير متفارق.

وهذا التحضيض والحث على تعلم العلم ليس كافيا لاقامة حضارة عالمية مثل الحضارة الاسلامية لان التعلم والحصول على معلومات الانكباب علي القراءة وحفظ الكتب

³⁴ الفاطر، 28/35.

³⁵ المجادلة، 11/58.

عن ظهر قلب لا تجعل الانسان عالما يعمل العلم وينتج علوما جديدة. انما تجعل الانسان حافظ الكتب. لان يكون الانسان ان يصبح عالما يحتاج الى ذهن وقاد ونافذ ومميز.

الحجر الاساسى فى بناء الحضارة الاسلامية

ولذلك بينت في مقال لي نقطة بدأ الحضارة الاسلامية بنظرية المعرفة ومنهجها. منذ وفاة ارسطو الي نزول القرآن كانت العلوم تدرس وتحفظ وتعاد مرة بعد اخرى لان ارسطو اصبح سلطة في العلم والفلسفة. فرقت انا بين ارسطو وافلاطون. ان افلاطون كان فيلسوفا فقط و ارسطو كان فيلسوفا وعالما، مثل الفارابي في الاسلام كان فيلسوفا. واما ابن سينا فكان فيلسوفا وعالما. في مدة الف سنة بعد وفاة ارسطو لم يتقدم اي علم تقدا بارزا ولكن عندما جاء القرآن كأن العلم انفلت من حباله بالقاء الضربة القاضية علي السلطة العلمية و اوقع الشك والريبة علي مسلمات ومبادئ العلوم واصحابها.
بقوله تعالى:

والله يعلم وانتم لا تعلمون.³⁶

وهذه الاية نفت العلم عن غير الله تعالى. ويدخل في غير الله كل ما سوى الله من الملائكة والجن والانبياء والاولياء والصالحين والفلاسفة واولي الابواب من جبريل والشيطان و ابراهيم و موسى وعيسى ومحمد، وسقراط، وافلاطون، و ارسطو و ابي بكر وعمر، وعلي بن ابي طالب والامام الاعظم ابو حنيفة، والكندي والفارابي وابن سينا والغزالي. وكل من جاء بعدهم من المؤمنين و غير المؤمنين، وهم لا يعلمون ولكن الله هو وحده يعلم. والصحابة قد فهموا وادركوا هذه الاية معني ومغزى لانهم طبقوا هذه الاية علي الرسول محمد (ص) حيث اذا قال النبي شيئا سألوه، هل هو من الله او من نفسه. اذا قال هو من نفسه، قالوا له

³⁶ البقرة، 216/2، 236، آل عمران، 66/3، النحل، 74/16، النور 19/24.

وهذا خطأ. ويقولهم هذا لم يكفروا ولذلك ان النبي (ص) لم يدعهم الى التوبة والايمان به، لان الرسول قبل انه اخطأ. وكانوا يعلمون علم اليقين ان النبي لا يكذب على الله، اذا قال هو من الله، كانوا يعلمون انه هو الحق المبين، لا مرء ولا ريبه فيه. والمؤمنون اذا كان لهم هذه الذهنية وهم من دون شك يشكون في حقية كل من قال شيئاً، وهذا ساقهم الى البحث والتقيب ليصلوا الى الحق. و طبق المسلمون الا وائل هذا الشك في غير الله، وهذه الاية ازلت السلطة العلمية عن كل احد غير الله واصبح كل احد ان يتعرف الى الحق في كل ما يصله من المعارف والمعلومات من غير الله بعد البحث والتقيب.

وهذه الاية اول مرة في العالم الانساني اثارت الشك والقي الريبة في المعلومات والعلوم الانسانية وبها بدأ البحث والتقيب في العلوم و جاء بعدها الاكتشافات العلمية والفلسفية لان الانسان اذا شك في معلومة او معرفة يتفتش وينظر الى ما حولها من الاحتمالات والثغرات والفجوات ليسدها او ليجد طريقا غير مطروق ويحول طريقه اليها وبهذه النظرة والطريق او المنهج في العلم والتعلم اصبح المسلمون الاوائل الذين كانوا تحت سيطرة الوحي اي القران شعروا بقلوبهم وامتصوا علوم الاوائل وتمثلوها، الى العصر الرابع الهجري (العشر الميلادي) حيث تشكلت السلطات العلمية وتمائيله فظهرت عوامل الضعف والخمول اعتمادا علي السلطات العلمية الجديدة في الاسلام. وبدأ التخلف في العلوم والتفكر لاسباب عدة من اهمها الانحراف عن القران بواسطة السنة والحديث وبالتصوف الانصراف عن الحياة الاجتماعية وبالتقليد الانكباب علي اقوال ائمة المذاهب و العكوف عليها دون مراجعة الى القران في كل حادث جديد.

مرتبة و تصنيف الناس فى الفهم

ومن حين لآخر اتخذت قصة امر النبي (ص) الذهاب الي بني قريظة. فان المسلمين في الطريق انقسموا قسمين: قسم تمسك بقول النبي بمعناه اللغوي قيل لهم اللفظيون، وقسم آخر تمسك بمعنى المقصود من القول وقيل لهم العقلانيون. وهذا هو الحجر الاساسى في مختلفات ومفارقات المسلمين في كل اقوالهم وافكارهم السياسية والاجتماعية والعقدية وغيرها. والكفاح بين خلق القران وغير خلقه؛ اساسه يستند علي التفرقة بين معني اللفظ وبين المقصود من اللفظ. وسري هذا الجدل والنقاش في العقيدة بين من قال ان الله عالم بعلم وبيّن من قال ان الله عالم بذاته اي ان الله عالم وكفي، ومن هذا المبدأ يعني اتخاذ المعني اللفظي اللغوي اساسا ومستندا واتخاذ المعني المقصود من اللفظ اي لماذا سيق الكلام له، ان اللفظيين اعتقدوا بان القران كلام الله هو تمثيل لذاته تعالى و العقلانيون اعتقدون بان القران كلام والكلام مخلوق مثل المخلوقات الاخرى، وعقل الانسان مخلوق الله تعالى مثل الانسان نفسه وان الله خلق الانسان وخلق له العقل معه، ومن هنا جاء الفرق بين القران وبين العقل. واللفظيون جعلوا القران صفة الله والعقل صفة الانسان. والعقلانيون اعتبروا القران مخلوقا والعقل مخلوقا كلاهما من خلق الله بدون فرق. بما ان اللفظيين اعتبروا القران صفة الله والعقل صفة الانسان، واذا التقي القران والعقل في اعتقادهم كانهم جعلوا الله مقابلا للانسان والانسان مقابلا لله تعالى. وانهما متساويان في الحكم. احترازا عن جعل الله مع الانسان في اعطاء الحكم في درجة واحدة نزلوا درجة حكم العقل من حكم القران بدرجات وجعلوا حكم العقل تابعا لحكم القران والقران هو يحكم والعقل هو يقبل ويصدق فقط. وهذه الفكرة قاضية علي عقول المسلمين من القرن الرابع حتى الان. واما الآخرون خاصة المعتزلة فانهم حاولوا ان يجعلوا العقل مساويا في الحكم للقران لان العقل والقران كلاهما من خلق الله، دون فرق واذا التقي يلتقيان كاخوين متساويين ومتساندين. الا انهم لم ينعموا النظر في رأي ولم يستطيعوا أن يسكتوا اللفظيين. لان عامة الناس لا يفهمون ولا يفقهون هذا المعنى الدقيق.

وفي الحقيقة ابو منصور الماتريدي قد ابان في كتابه التوحيد ان القران جاء ليؤيد العقل في الاحكام العقلية الضرورية والعقل يوافق القران في الممكنات والجائزات واما الراغب الاصفهاني صاحب الذريعة ومفردات الفاظ القران يقول: العقل والرسالة هي الهداية العامة³⁷ فهو يسوي بين العقل والوحي. واني اقول العقل هداية عامة لانه اعطي لجميع الناس وهم يحاكمون عليه. والرسالة هداية خاصة بواسطة بعض الناس وهم الانبياء.

في الثقافة الاسلامية نري اصحاب السنة والمحدثين صاروا اعداء للكلام: فلا شك ينبغي ان يكون هناك سبب ملح وباعث سائق الى اتخاذ هذا الاتجاه ضد علم الكلام. الا انني اظن ان يكون السبب ما قلت أنفا التمسك بالمعني اللفظي من قبل اهل الرواية والمحدثين لا شتغالهم بالروايات ولم ينتقلوا من الالفاظ اللغوية الي ما يقصد من استعمال الفاظ في الجملة و هي تركيب الكلام فان اول نزاع او افتراق للفهم في الاراء والمعارف بدأ بين اهل الحديث واهل الرأي، بين اهل الرواية وبين اهل الدراية.

الفرق ظاهر بين الرواية والدراية. والرواية نقل كلمات او جمل الاخرين سواء كانت كلمات النبي (ص) وجمله او لشخص آخر دون معرفة معناها وهي نقل قوالب المعاني والالفاظ مثل ساعي البريد، ولذلك كان ينظر هل الراوي امين وصادق في روايته او ناس و مختلط ومغير الكلمات. والدراية هي ادراك و فقه الكلمات والكلام التي تركبت من الكلمات وترتيب الالفاظ وما تحمل من المعاني. وهذا الفرق العظيم جعل اصحاب الرأي يطعن في اهل الرواية ويشير الاستاذ الدكتور محمد سعيد خطيب اوغلي في سبب تاليف الخطيب البغدادي كتاب شرف اصحاب الحديث بقوله.

³⁷ الراغب الاصفهاني، مفردات الفاظ القرآن، 838، طبعة جديدة، بيروت 1992، حسين آتاي، تحصيل الجهالة 213، مايو، 2004، انقره.

ان اهل البدع والمتكلمين من المعتزلة والفرق الضالة لا يستند في المسائل الدينية علي الكتاب والسنة بل علي عقولهم. وهؤلاء الاشخاص قد يتناولون علي الحديث واهله ويتخذونهم هزوا وما هم في الحقيقة الا ناقلو الكتاب والسنة الينا فقط. ولعل سائلا يسال ما هو دافع لهم فعداوة اهل الحديث؟ يقال ان في الاحاديث ما هو مخالف لمعتقد صاحب العداوة ويجب اولا ازالة قيمة هذه الاحاديث حتي تفتح لافكاره الابواب والسبل لان فكره او معتقده ليس له اية قيمة تذكر امام الشريعة مع وجود الاحاديث.³⁸

ولا اريد ان اطول الكلام بين اهل الرواية والدراية الا انه ينبغي ان يذكر حديث موجود في البخاري عن الرسول(ص) حيث يقول: رب مبلغ اوعى من سامع³⁹ وكان الاستاذ المرحوم محمد تاويت الطنجي يقول: ان اهل الحديث مثل ساعي البريد، ينظر هل البريد بريد عادي، او بريد مسجل او بريد جوي، او ارضي فقط.

فلم يخبر الله ولا رسوله بما يناقض صريح العقل ولم يشرع ما يناقض الميزان والعدل⁴⁰ قال اهل العلم والنظر: حد العلم والتبين ادراك المعلوم على ما هو به. فمن بان له الشئ فقد علمه. قالوا: المقلد لا علم له ولم يختلفوا في ذلك. والتقليد في دين الله غير صحيح.⁴¹

والنقيت بالاستاذ المرحوم ناصر الدين الالباني في دمشق كان ينقد المتكلمين ويقول: انتم المتكلمون تقولون كذا وكذا وانا ساكت ثم في نهاية الحديث قلت ايها الاستاذ انتم تقولون لنا ان قولكم في الاستواء بمعنى الاستيلاء وهذا تأويل والتأويل غير صحيح، وانتم تقولون

³⁸ تحقيق الاستاذ الدكتور محمد سعيد خطيب اوغلي في مقدمة شرف اصحاب الحديث IX ، الطبعة الثانية، انقره 1991.

³⁹ اسماعيل البخاري، كتاب العلم، الرقم 34/9.

⁴⁰ ابن قيم جوزية، اعلام الموقعين، 52/2

⁴¹ نفس المصدر، 178/2

للاستواء بمعنى الاستعلاء وهو ليس بتأويل؟ في الحقيقة قولنا تاويل وقولكم تاويل ايضا، لا فرق بينهما بان يكون تاويلا. ولكن يمكن لكم ان تقولوا قولنا بالاستعلاء وان كان تاويلا ولكن تاويلنا اقرب الي الصواب من تاويلكم. وسكت الاستاذ ولم يرد علي بشئ. وفي نفس المجلس قلت ايها الاستاذ انتم لا تقولون بان العقل له حق الحكم عدا ان يكون الة للفهم فقط ولكن اقراركم بان العقل الة للفهم فقط. هذا يكفيننا ايضا. والاستاذ سكت كذلك ولم يجب. عرفت ان الاستاذ عالم محترم يعرف المبادئ العلمية ويحترمها. لانه اذا اخذنا العقل الة للفهم فقط. كل له عقله وكل له فهمه ولا نلتقي في اي فكر ومبدء. وهو يجر الانسان الى مبدأ ان الانسان هو مصداق الصواب والحق كما قاله بروطاغوراس protagoras (410-470 قبل الميلاد)

عداوة للتكفير

وبتأثير اهل الحديث علي اهل الرأي في البداية اهل الرأي تركوا كلمة الرأي وبدلوها بكلمة الفقه. ثم بدأ اهل الرواية يوجهون طعنهم وعداوتهم للمتكلمين. وهنا فرق بين معاني الكلمات اللغوية قبل كل شئ. اهل الرواية يروون عن غيرهم لان كلمة روي يروي رواية لا تعطي معني اكثر من نقل اقوال او الفاظ الاخرين ليس لهم اي فكرة كما قلنا. والكلام ليس كذلك. والرجل عندما يتكلم، يتكلم عن نفسه وعلي حسابه وهو حر و طليق فيما يتكلم ويقول. لا شك يتكلم بعقله وحسب عقله ومن الطبيعي ان هذا لا يستحسن من قبل اهل الرواية وهذا كان قبل ان يأخذ الكلام بمعنى الاصطلاح الكلامي حيث اصبح علم الكلام علما مستقلا عقليا وفلسفيا من ناحية و مناوئا للفلسفة من جهة اخرى. فاني احاول ان ارجع النزاع والخصام بين اهل المعرفة واهل الفكر الي مبدء الكلمات اللغوية من ناحية مبدء النزاع. ثم تطور زاد الطين بلة عندما دخلت فيها المصالح الدينية او السياسية والاجتماعية.

ونري النزاع او الخصام في الثقافة الاسلامية طوال التاريخ من العصر الاول الي العصر الخامس عشر جري بين اللفظيين والعقلانيين كما بدأ في حياة الرسول. وفي يومنا هذا نحن نكابد شدة ضغط اللفظيين المقلدين للسلف دون فقه وسيطرتهم علي افكار السياسيين وعلي عامة الناس وهما يتناوبان في التضييق علي المتقفين والمتفكرين ويتساندون دون اهمال دقيقة واحدة لغيرهم للتنفس والراحة.

وفي عقد الفريد لابن عبد ربه (246-328/860-1939 م) وضعت كلمة الفلسفة مكان علم الكلام وبدأت عداوة الفلسفة من ذلك الحين كما يقول استاذ الحديث محمد خطيب اوغلي.⁴²

كان ابا يوسف قال:

وقال ابو يسف القاضي (113-182/731-798م) ثلاثة لا يسلم من ثلاثة من طلب الدين بالفلسفة لم يسلم من الزندقة.⁴³

علي ذلك ان الخصومة اولا للكلام ثم للفلسفة ابتداء بها اهل الرواية والمحدثون ثم انتقلت الي المذاهب المستندة على الرواية من دون ان يتعمقوا في معاني الالفاظ اللغوية. ولم يحاولوا ان يتعدوها الي المقاصد. وبعد المائتين وخمسين عاما جاء الغزالي وتصدي للفلسفة الاسلامية بشدة وتكفير اساطينها عندما وصلت الثقافة والعلوم الاسلامية الذروة وسنتطرق اليه فيما بعد.

اذا لم تصل العائلة العباسية الي السلطة ولم تجعل بغداد عاصمة لها، ما كانت تظهر في دمشق حركة الترجمة من اليونانية الي العربية. والثورة العباسية وبناء بغداد ونقل

⁴² علي الثقافة الاسلامية 57، انقرة، 2004.

⁴³ ابن عبد ربه، عقداالفريد 208/2.

الخلافة الي العراق كل هذه الامور والبواعث قد غيرت وحولت ميل الثقافة الامبراطورية العربية رأساً على عقب.⁴⁴

فالخليفة الثانية من بنى العباس ابو جعفر المنصور يعتبر مؤسس الدولة العباسية ولكن علي ما يحكم عن افعاله واعماله التي قام بها وهي اكثر اهمية في وضع الحجر الاساسي لاشادة الحضارة الاسلامية وهو كان ضليعا علي دخائل النفوس و عارفا كيف يدبر المجتمع المتألف من جماعات متعددة مختلفة العقائد والمذاهب ومفترقة الطبائع والثقافات منذ تاريخ عتيق، كل منها تعتر بنفسها ولا ترغب ان تسيطر عليها قومية مخالفة لها. و ابو جعفر المنصور جعل تلك الجماعات في مضمار السباق ليتنافسوا في ترجمة الكتب القديمة من اليونانية وغيرها الي اللغة العربية باجرة باهظة. والترجمة رفعت مرتبة المترجمين وجعلتهم مشهورين في المجتمع من ناحية، ومن جهة اخرى رفعت معيشتهم لكسبهم ثروات طائلة وبذلك ابو جعفر اشغل الجماعات المختلفة في عمل مرغوب ولم يبق لهم وقت فراغ للتشويش واثارة الفتنة بين الجماعات لكل لهم شغل يشغل به. اعتقد ان هذه ادارة وسياسة حكيمة لمختلفة الشعوب والامم باشغالهم بمهن وحرف حسب ميولهم ليرتقوا بها و يتبحروا بها ويستفيد كل واحد بعضهم من بعض.

وبتشويق الناس الي الترجمة وتحصيل المعلومات خاصة بالبداية بعلم التجيم وهو كان قد نشأ وتطور في العراق الرافدين منذ قديم الزمان، وكان التجيم ثقافة محلية للعراق واهل البلد تقبلوها بالترحاب، ومن جهة كان ابو جعفر يود ان يطلع علي الامور المستقبلية الغائبة حتى يستفيد للاتخاذ التدابير اللازمة قبل وقتها.

⁴⁴ د. غوطاس، فكرة يونانية، ثقافة عربية، 30، استانبول.

واني ارى مشكلة اخرى كانت عائمة في الامبراطورية العباسية هي خصومة اهل الرواية اقصدا اهل السنة واهل الحديث. وكما قلنا انفا كانوا لفظيين ولا يفهمون الامور السياسية والاجتماعية والادارية في دولة عالمية. وكان النزاع بين اللفظيين والعقلانيين في المرة الاولى في الحوادث اليومية الفرعية في الشريعة ثم اصبح النزاع بينهما في الكلام وبعده للفلسفة. وفي الحقيقة ان اهل الرواية لم يكونوا اهلا للنقاش مع اصحاب العقائد للاخرين. ولذلك كانت الحاجة الي الكلام والفلسفة شديدة وكان الخلفاء العباسيون الاول مهتمين بالدين الاسلامي لينتشر ويكثر المسلمون في المجتمع مقابل الجماعات المخالفة للعقائد وهم كانوا حريصين لالقاء الفتنة بين اصحاب العقائد وبين المسلمين خاصة. والمتكلمون والفلاسفة يواجهون الانتقادات علي الدين الاسلامي، لاهل الرواية يقومون بها. وهم يخالفون اولي الالباب من المسلمين حتي يومنا هذا.

ان الحضارة الاسلامية قامت علي اساس ان الوقائع والطبائع الفطرية قاضية علي النصوص وليست النصوص قاضية علي الوقائع اعني ان الوصول الي حل المشاكل الاجتماعية، والسياسية جزء منها، ان تدرس الواقعة كمشكلة اولا من قبل العقل والعلم بالتعاون مع النصوص والنصوص لا تؤخذ اولا محكمة مسلمة ولا قاضية لتطبق المشكلة الواقعة عليها لانه اذا اخذ النص اولا اساسا والنص يكون في تاثير المشكلة بوضعها تحت منظار الفاظ وهي ضيقة الافق والاطار ولا يحيط كل فرد في المجتمع وجعل المشكلة في حل جزئي ولا يتعداه ولكن اذا وضعت المشكلة اولا امام العين و تدرس باوسع ما يمكن بالعقل ثم يقابل بالنص المقصود منه والحل يكون شاملا عاما ومحيطا كثير الجوانب. يعني النص محاط باطار اللفظ واللفظ كلفظ لا يتحمل معني اوسع مما في نفسه اللغوي. وابن قيم الجوزية قد انتبه الي هذا وقال عبارته الرائعة. ان الذي لا يفهم الوضع ولا يفهم النص لا حق له ان يتكلم في الدين.

وهذا القول هو قول العقلايين لان فهم النص يكون بالعقل وفهم الوضع (الحال) يكون بالعقل. وبيانا لهذا اقول للنص معنيان: احدهما: ماذا قال وثانيهما ماذا اراد ان يقول، والاول يتمسك به اللفظيون، والثاني ياخذة العقلايين، وهو الفرق البارز فيهما.

لم اطلع علي احد من المحدثين واهل الرواية ذكر اسم ابن سينا بحفاوة وسرور غير الاستاذ الدكتور محمد سعيد خطيب اوغلي من كلية الالهييات بجامعة انقره. بعد نقله حديثا لا عتبار الفلسفة زندقة:

انشد ابو زيد الفقيه (175-262) لبعض علماء شاش (مدينة في قرب سيحون) كل الكلام سوى القران زندقة الا الحديث والا الفقه في الدين.

والمعالم متبع ما كان «حدثنا» وما سوى ذلك وسواس الشياطين.⁴⁵

معني ذلك، اي علم لم يرو عن النبي وعن اصحابه لم يكن له قيمة علمية. وضع الحظر علي الصناعة او على الفكرة الفلسفية او ادخالات اي نوع من الثقافة لو كان حاكما في كل مكان وفي كل دور من الادوار لكان مستحيلا وخيالا ان نبحت عن الحضارة الاسلامية. اللهم! لم يكن كذلك. وفيلسوفنا العظيم المسلم (ابو علي ابن سينا) وقد لقي عداوة من اهل الرواية وبعد وضع الفلسفة مكان الكلام في رواية ابن عبد ربه (328-940 م) اصبحت هناك اقوال كثيرة واستمرت المجادلة ضد الفلسفة قرونا الي عصرنا هذا.⁴⁶

واراه من الواجب ان اشير الي الفرق بين محمد اقبال وبين محمد سعيد خطيب اوغلي، محمد اقبال بما انه يعتبر فيلسوفا اسلاميا ويدعي ان الفلسفة قد حالت بين المسلمين والقران ولذلك انصرف الناس من القران وانجمدت الحضارة الاسلامية وتخلفت. وعندما عرفت هذا القول من محمد اقبال قلت انه لم يفهم القران ولا الفلسفة الاسلامية لانه سيطر

⁴⁵ الخطيب البغدادي، شرف اصحاب الحديث 79، الرقم 170.

⁴⁶ خطيب اوغلي، على الثقافة الاسلامية، 57.

عليه التصوف اللاعقلاني. ومحمد خطيب اوغلي بما انه محدث يشكو من عدواة الفلسفة والفلاسفة المسلمين. واذا لم يكن فلاسفة في الاسلام لم تصبح ولا قامت هناك حضارة اسلامية. الذي يتقن الفلسفة ويمتصها يجد القرآن فلسفة كتاب وفيه مبادئ فلسفية عقلية والمنطق البرهاني. واني اقول الكلام والفلسفة في الاسلام يبدئان من القرآن. والناس يبحثون متي بدأ علم الكلام والفلسفة. اذا كانوا يعرفون الفلسفة. كما يناقشون نظريات الفلاسفة اذا ناقشوا القرآن كذلك يجدون فيه علوما طبيعية وفلسفة ما وراء الطبيعة. ولكن المسلمين لم يعملوا كلام القرآن ولا فلسفة القرآن وان كان المتكلمون ذكروا بعض الايات في كتبهم في الكلام، وهي لا تعتبر كلاما قرانيا.

الغزالي ولد بعد وفاة ابن سينا باثنتين وعشرين سنة بتعبير خطيب اوغلي (450 هـ - 1058 م) وهو التاريخ الذي وصلت فيه العلوم الاسلامية والفلسفية الي الذروة والحضارة الاسلامية كانت في القمة والاساليب العلمية قد نضجت واصبحت سهل المنال والتعلم. فالغزالي في صغره دخل المدرسة واتقن العلوم بسهولة وذكأؤه الحاد ساعده على ذلك. وتتلذذ علي الامام الجويني الي وفاة الجويني (478 هـ - 1085 م) ثم ذهب الي المعسكر بلاط نظام الملك ودرس هناك ستة سنوات ثم اصبح مدرسا في نظامية بغداد (484 هـ - 1091 م) ودرس فيها كان يحضر درسه ثلاثمائة او اربعمائة⁴⁷ من اكابر العلماء واما ضلهم. ذاع صيته انحاء العالم الاسلامي. ولاسباب سياسية او روحية ترك التدريس في نظامية بغداد وخرج من بغداد خفية.

والغزالي حجة الاسلام قد تصدى للهجوم علي الفلسفة والفلاسفة المسلمين في كتابه تهاافت الفلاسفة. كتبت عن الغزالي مقالا في ندوة المنصة المدورة في باريس 1985 ورسالة عنه بالعربية لم تنتشر بعد و مقالا بالتركية قبل العامين وهنا اريد ان اشير الي ضجة اقامها

⁴⁷ شذرات الذهب، 13/4.

ضد الفلسفة والفلاسفة المسلمين واتبعه اللفظيون في الطعن علي الفلسفة واصبح هناك معلومات و اراء متساندة ضد الفلسفة حتي يومنا هذا. ثم احاول ان اجيب عليه في اتهام ابن سينا في علم الله تعالى بالجزئيات بواسطة الكليات. سألت طلابي في كلية الالهيات عن الغزالي اي القولين يكون لمصلحته. اذا قلنا: ان الغزالي فهم ابن سينا ولكن بسؤ نيته كفره او ان نقول انه لم يفهم ابن سينا ولذلك اخطأ في تكفيره؟ اجاب طلابي بانه لم يفهم يكون اصلح له لان المسلم لا يكون علي سوء نية وكنت وضعت هذا الترجيح في كتابي للتدريس "اسس الايمان للاسلام"⁴⁸

ويسرد الاستاذ خطيب اغلي اقوال الطعون واللعنة علي ابن سينا بعد الغزالي كالاتي:

١- المؤرخ عز الدين ابن الاثير (المتوفي 630/1232 م) في تاريخ الكامل (سنة 428 المجلد 9/456)

٢- ابراهيم بن عبد الله الحموي (1244/622 م) القاضي الشافعي شارح الوسيط للغزالي يقول: المعاصرون للغزالي وممن جاء بعده من العلماء اتفقوا علي كفر الفارابي وابن سينا. (ابن حجر، لسان الميزان 293/2)

٣- ابن الصلاح الشهرزوري المحدث الفقيه الشافعي (643 هـ/1245 م) وهو محدث مشهور فغضب علي فيلسوفنا بقوله: ابن سينا ليس من علماء المسلمين و انما هو شيطان من شياطين الانس.⁴⁹

⁴⁸ حسين آتاي، اسلامك اينانچ اساسلىرى 93، كلية الالهيات، انقره 1994.

⁴⁹ شذرات الذهب 237 (234... حياة ابن سينا مفصلة)

٤- تقي الدين ابن تيمية (728 هـ/1328 م) وهو اكثر من اشتغل بابن سينا وعنده ابن سينا والفارابي ليسا من فلاسفة الاسلام لان الفلسفة لم تخرج من الاسلام نفسه ويمكن ان يعتبروا من المتفلسفة المسلمين.⁵⁰

ابن تيمية قد اوسع فيما كتبه عن ابن سينا و اذا جمع ما كتب ضده يمكن ان يكون كتابا. يقتصر الفرص ليتكلم عليه بسوء كقوله بالطبيب الزنديق والدهري والباطني⁵¹ ولا اطيل الاقوال لابن تيمية وعبارته ضد ابن سينا في كتبه المختلفة من فتاواه سبع و ثلاثين مجلدا ومنهاج السنة تسعة مجلدات بالطبعات الجديدة و غيرها.

٥- محمد بن احمد الذهبي (748 هـ/1348 م) تلميذ ابن تيمية في كتابه في تاريخ الاسلام: ابن سينا كان ذكيا جدا وفيلسوبا مسلما وخالف الرسول باتباعه العقول⁵² ويقول في مكان آخر: لا اعرف انه قد روي شيئا من العلم ولو روي لما حلت الرواية عنه لانه فلسفي النحلة وانه ضال.⁵³

٦- ابن قيم الجوزية (751 هـ. 1350 م) تلميذ ابن تيمية عالم حنبلي هو اكثر شدة في نصير الدين الطوسي (670 هـ/1247 م) يقول انه اسس مدارس للملحدين واراد ان يضع كتاب الاشارات لامام الملحدين ابن سينا مكان القران ولكن لم يوفق في ذلك⁵⁴

٧- تاج الدين السبكي (771 هـ/1370 م) فقيه شافعي قاضي القضاة. يقول: ان ابن سينا يدعي ان الله تعالى لا يعلم الجزئيات الشخصية الا بصورة كلية. وهذا كفر صراح.⁵⁵

⁵⁰ ابن تيمية، الجواب الصحيح، 10/4 طبعة حديثة.

⁵¹ على الثقافة الاسلامية، 60، النجوم الزهرة، 25/5.

⁵² ابن تغري بردي، تاريخ الاسلام 232/29.

⁵³ الذهبي، ميزان الاعتدال 2014/1 مادة ومُحقق الكتاب على محمد البجاوي يقول: في "قانونه" قد روى احاديث، 1966 مصر.

⁵⁴ شذرات الذهب 339/5، 340، ابن القيم الجوزية، اغائة اللفهان 370.

⁵⁵ طبقات الشافعية 199/5.

فان الاستاذ خطيب اوغلي بعد سرد هذه الحكايات يقول: ان هؤلاء الناس الذين نقلنا قناعاتهم فانهم على العموم اشتغلوا بالعلوم الشرعية وكانوا بعيدين عن العلوم الطبيعية والفلسفية. فيلسوف مثل ابن سينا عندما ذكر آرائه المخالفة لهؤلاء الشرعيين هاج هائجهم وافرطوا في القول ضد الفلسفة والفلاسفة حسب الاوضاع التي كانوا فيها، ولا ينبغي تعميم احكامهم لان من العلماء من نظر الي الفة وانسية ابن سينا للعلوم الشرعية. واختار ممثلا بهؤلاء العلماء المؤرخ الكبير ابا المحاسن ابن تغري بردي (875 هـ/1470 م) مجيبا علي قول الذهبي أنفا:

كان ابن سينا صاحب الفلسفة والتصانيف الكثيرة كان امام عصره في الحكمة وعلوم الاوائل بل كان اماما في سائر العلوم وتصانيفه كثرة في فنون العلوم حتي قيل عنه انه ليس في الاسلام من هو في مرتبته. قال ابو عبد الله الذهبي كان ابن سينا اية في الذكاء وهو رأس الفلاسفة الاسلاميين الذين مشوا خلف العقول و خالفوا الرسول. قلت لم يكن ابن سينا بهذه المثابة بل كان حنفي المذهب تفقه علي الامام ابي بكر ابي عبد الله الزاهد الحنفي؛ وتاب في مرض موته وتصدق بما كان معه واعتق مماليكه ورد المظالم علي من عرفه. وجعل يختم في كل ثلاثة ايام ختمة الي ان توفي يوم الجمعة في شهر رمضان. قلت: ومن يمشي خلف العقول ويخالف الرسول لا يقلد الاحكام الشرعية ولا يتقرب بتلاوة القران العظيم.⁵⁶

قد بدا لنا أن اهل الرواية هم اصحاب احمد بن حنبل (164-241 هـ/780-855) وهم الحنابلة واصحاب محمد بن ادريس الشافعي (150-204 هـ / 767-820 م) وهم الشوافع، قد اتفقا واجتمعا واصبحا يدا واحدة علي العقلانيين وهم الفلاسفة. الا ان اتفاق المذهبين واجتماعهما ضد الفلسفة لم يكونا عن روية وتفكير عميق واجماع بينهما؛ كان التقاؤهما صدفة نشأت من طبيعة الرواية المستندان عليها كحجر اساسي في فهم الدين. ولذلك

⁵⁶ جمال الدين ابو المحاسن يوسف بن تغري بروي، النجوم الزاهرة في ملك مصر والقاهرة 25/5-26.

لعدم تعقلهم وتفقههم فيما يرويانها، صارت عداوة بين الشافعية والحنابلة و اوصلت في بعض الاحيان الي القتال بالسيوف باسباب تافهة فقهية مثل الجهر بالبسملة او الترجيع. وبين اصحاب ابي بكر المروزي "احمد بن محمد بن الحجاج" و بين العامة لان اصحاب المروزي فسروا قوله تعالى:

عسى ان يبعثك ربك مقاما محمودا⁵⁷

هو ان الله تعالى يقعد النبي معه علي العرش. وقالت الطائفة الاخرى انما هو الشفاعة. فوعدت الفتنة واقتتلوا فقتل بينهم قتلى كثيرة. كذا وقعت فتنة عظيمة بين الشافعية والحنابلة⁵⁸ وان الخليفة القادر (381-422 هـ / 991-1031 م) صنف كتابا علي ترتيب مذهب اصحاب الحديث في اكفار المعتزلة والقائلين بخلق القران وكان الكتاب يقرأ كل جمعة في حلقة اصحاب الحديث بجامع المهدي ويحضر الناس سماعه.⁵⁹ والخليفة هذا استتاب فقهاء المعتزلة الحنفية (سنة 408 هـ 1017م) وهم اظهروا الرجوع و تيرأوا من الاعتزال ثم نهاهم عن الكلام والتدريس والمناظرة.⁶⁰

العقل والوحي

هل كان من الممكن ان تقام وتنشأ الحضارة الاسلامية العالمية والفلسفة الاسلامية العالمية التي دوخت العالم وصارت سبب نشوء الحضارة الغربية باهل الرواية هؤلاء؟ ولم يقع قتال ولا نزاع بين العقلانيين كما وقع بين الروائيين واللفظيين. واثناء هذه الوقائع

⁵⁷ الاسراء، 79/17.

⁵⁸ خطيب اوغلي مقدمة شرف اصحاب الحديث XIII ، ابن الاثير 213/8، البداية 174/11، حاشية زاهد الكوثري علي تبين كذب المفترى 392.

⁵⁹ تاريخ بغداد، 37/4، المنتظم، 161/7.

⁶⁰ المنظم 287/7، ابن الاثير، 305/9، البداية، 7/12.

والصاخات بحمد الله تعالى جاء الكندي والفارابي وابن سينا، وابو بكر الرازي وابن الهيثم وغيرهم من العقلانيين وبجهودهم الجبارة صارت هناك حضارة اسلامية، ولا بعد الخليفة القادر والغزالي ما كان يمكن ان تقوم للاسلام حضارة ولا فلسفة، وما كان الغرب يستيقظ والمسلمون تحت اهل الروايات واللفظيين كانوا مثل النصاري في ظلام دامس يقتتلون كما اصبحوا بعد الغزالي، واذا عرفنا ان الغزالي من الشوافع وانه الاشعري العقيدة. في نظري، انه اراد ان يمس ابا حنيفة بسوء بتعصب مذهبي ورأى الطريق وعرا، انتقل الي الفارابي وابن سينا لانهما من المذهب الحنفي فقها، وانتقم بهما عن اهل الحق والعقلانيين. اليس من العجيب ان السعوديين وهم من الحنابلة مذهباً، سموا المركزين النفطيين في الدمام باسم ابن سينا والآخر بابي بكر الرازي، وقادة الدول الاسلامية لا مناص لهم من ان يتبعوا الصناعة العصرية ويتعلموا العلوم العصرية. فالمشكلة نفوذ اهل الرواية واللفظيين علي الجماعات والمجتمعات عندهم، ولذلك المسلمون لا يتحضرون اي لا يستطيعون ان يعيشوا في الحاضر وسد حاجات الناس العصرية الحاضرة.

وانى اتى الي الغزالي من مسألتين: الاولى منهجه العدواني ضد الفلاسفة والثانية اتهامه ابن سينا بعلم الله تعالى للكليات دون الجزئيات.

١- ان المشكلة بين اللفظيين والعقلانيين مسألة النص اي الوحي والعقل ايهما اول و ايهما ثان، بمعنى ايهما يتخذ اساساً والآخر يبتني عليه. اهل الرواية يعطون للنص اولية وهي مصداق الحق والصواب، والعقل يؤيده ويقبله ومن الضروري ان يتقبله ولا حق للعقل الاعتراض علي النص. والدين هو الرواية: النصوص. والنص يرشد العقل ويصحح اخطاء العقل. ولكن لا يعرف اهل الرواية انه اذا لم يفهم العقل القران اولا كيف القران يرشد العقل فان ارشاد القران للعقل يتوقف على العقل لتعقل القران كما فهمه الشيخ الناصر الاباباني لما سبق وقبل بضعة سنوات، قلت ان العقل يقول الحق دائماً ولا يخطأ. زملائي الاساتذة

اعترضوا على بان العقل يخطئ ولكن هو نفسه يكشف ويجد خطأه. قلت لهم اذا كان العقل مرة يخطئ ومرة يصدق من يميز بين خطائه وصوابه. هل هناك عقل آخر او من هو؟ ولذلك اصررت في قلبي ان العقل لا يخطئ ويقول الصواب دائما. ثم وجدت ان ارسطو قال هذا القول في علم النفس: هنا ترجمتان لارسطو بالعربية:

وكل عقل فان مذهبه مستقيم فان التوهم والشوق فان مذهبهما مستقيم وغير مستقيم. ان العقل يكون دائما مستقيما على حين ان النزوع والتخيل قد يستقيمان او ينحرفان.⁶¹ في الترجمة التركية وضع مكان العقل الذكاء وهو خطأ عندي لانه هناك فرق كبير بينهما. لان الذكاء يفهم ويدرك ولا يفكر، فالعقل يفقه ويفكر. واما علماء النصرانية فمثل اهل الرواية واللفظيين في تقويم العقل وهم كذلك يقدمون الوحي عليه.

والغزالي من اهل الرواية واللفظيين كذلك. وابين هنا مشكلة اخري وجدتها عند علماء المسلمين، فالمعرفة شئ والفقه شئ آخر. علم او معرفة اي شئ لا يقتضي ان يفهم منه شئا آخر او ينتقل منه الى معنى يناسبه وينبغي له. وحتى الآن من علماء الدين لهم معلومات للاشياء حقيقة ولكن لا يفقهون ما ينبغي ان يفهموه. والقران ينقد الناس بقوله:

لا يكادون يفقهون قولا⁶² ولا يكادون يفقهون حديثا⁶³ لهم قلوب لا يفقهون بها⁶⁴ فانهم يعرفون، ولكن لا يفقهون.

ان مقدمات الغزالي علي التهافت تبين اخلاق الغزالي للبحث والتتقيب فانه لا يريد ان يبحث عن الحقيقة وانما قصده ان يحطم ويهدم. الغاية هذه ليست مشروعة بالنسبة

⁶¹ ارسطو، علم النفس -9-25-26.

⁶² الكهف، 93/18.

⁶³ النساء، 78/4.

⁶⁴ الاعراف، 179/7.

للشريعة لان الشريعة لا يقصد للهدم والتدمير ابدأ وانما تحاول ان تكشف حقيقة عند الخصم، حتى تتعمق معه في بناء صرح الحقيقة. والغزالي بقوله:

فلذلك انا لا ادخل في الاعتراض عليهم الا دخول مطالب منكر، لا دخول مدع مثبت.

ولا انتهض ذابا عن مذهب مخصوص بل اجعل جميع الفرق الباطن واحدا عليهم.⁶⁵

فان الغزالي اخذ هذا المنهج ممن سبقه في نحلته وهو عدم قبول اي حقيقة عند الخصم. وانما الدعوى النفي كلياً والرد وابطال كل ما لدى الخصم من معلومات ومعارف، فهو دعوى العدمية (النهلسية) وهو لا يعترف اي حقيقة بالمرّة. والغزالي قد نجح في دعواه هذه، وصار سبباً لانحطاط العلوم الفلسفية عند المسلمين والذين اتبعوا الغزالي في اخلاقه ومنهجه هذا. كان قصدهم تدمير الخصم بالكلية. وقد نجحوا في دعواهم بقسط كبير. اخلاق اهل الرواية الغزالي ليس مطابقاً للقران. فان منهج القران للمناقشة مع الخصم هو المنهج الاحسن، لان القران لا يريد ان يفقد خصمه و يدعه على وداع المصادقة لانه يحتاجه ويريد ان يكسبه في المرة الثانية او الثالثة واكتفي هنا بقوله تعالى:

وانا او اياكم لعلي هدى او في ضلال مبين.⁶⁶

فان الغزالي لما رأى انه لا يستطيع ان يأتي بشئ جديد مضاف الى العلوم الاسلامية والفلسفة الاسلامية لانه كان مقلداً للشافعي في الفروع اي الفقه ومقلداً لابي الحسن الاشعري في العقيدة وهما ضد العقلانية في الدين. وجد ان الاحسن له ان يناهض لفلسفة و علم الكلام وهما يستندان علي المبادئ العقلية. ولكن السياسة ساعدته في ذلك وكانت ظهيرة له وقدمت له اقصى الامكانات. وانه وجد البيئة السياسية من زمان تطلب لمن يقوم بقمع الفلسفة و علم

⁶⁵ التهافت، مقدمة ثالثة، 82-83 تحقيق سليمان دنيا مقدمة رابعة، مصر.

⁶⁶ سباء، 24/36.

الكلام عن اذهان العامة والخاصة وعن عقولهم بالتشويش ومهما كان الامر. ويقول ذلك بصراحة في قوله: وانما غرضنا ان نشوش دعاويهم وقد حصل.⁶⁷

النتيجة

وعندي بيان في علم الله تعالى باعمال الانسان المستقبلية حيث لا اقول ان الله تعالى يعلم ما سيعمله الانسان غدا اجتنابا عن الجبر ولا اقول لا يعلمه اجتنابا عن الايهام بايراث نقص في صفة علم الله ولكن اقول: كل شئ و من جملة عمل الانسان الحر داخل في علم الله. لان علم الله شامل على الماضى والحال والمستقبل وعمل الانسان سيوجد اما في الماضي او الحال او المستقبل. وانقسام الزمان بالنسبة الينا ليس بالنسبة لله تعالى. وامثل لذلك، السمك في البحر، يولد، يعيش ويتحرك ويموت و هو في البحر ليس خارجه. وعلم الله تعالى كذا محيط الازمنة كلها بدرجة واحدة. والمهم هنا البحر لا يضغط ولا يجبر السمك لعمل او حركة يقوم به وكذلك علم الله تعالى لا يجبر الانسان الى عمل وعمله داخل في علم الله تعالى. واذا وجد الانسان ايضا احسن من هذا نستفيد منه.

يبدو لمن يطالع الثقافة الاسلامية طوال تاريخها يرى ان اهل الرواية يسرفون فى الاضلال والاكفار والتبديع اكثر واكثر من غيرهم، ولذلك قلت مرات واقول كذلك انهم لا يفقهون ما يروون وحتى لا يفهمون ما يروونه. كيف يمكن للمؤمن بالقرآن الكريم ان يفوه بكلمة التكفير والتضليل لاي واحد من الناس خاصة المؤمنين. ان القران الكريم لم يعط حق التكفير والتضليل حتى للنبي (ص) و حتى لم يستحسن منه الدعاء على المشركين بقوله:

ليس لك من الامر شئ او يتوب عليهم او يعذبهم فانهم ظالمون.⁶⁸

⁶⁷ التهافت 153، سليمان دنيا.

⁶⁸ آل عمران، 128/3.

ثم لنحن اعلم بالذين هم اولى بها صليا.⁶⁹

قلت في مقدمة كتابي "نظرية الوجود عند ابن سينا" بان دينا اذا لم يكن له فلاسفة لا يكون دين حضارة وكان الدين الاسلامي دين حضارة عالمية عندما كان له فلاسفة، مجتهدون و متفكرون. واذا لم يكن للامة فلاسفة لا تصنع حضارة ولا تبنيها. واذا كان المسلمون يريدون ان يكون لهم صوت عند اصحاب الحضارات الحديثة وان يبنوا حضارة جديدة ينبغي عليهم ان يهتموا بالفلسفة قديمها و حديثها وان يربوا فلاسفة لهم. و الا سيبقون عبيدا و اسرى للاخرين كما هو الحال الان. فانه لا يكون للانسان وللامة شخصية الا بالفلسفة فقط. على المسلمين ان يحطموا و يهدموا تمثال الغزالي و امثالهم وسلطتهم الدينية والعلمية. لا سلطة في دنيا العلم ولا سلطة في دنيا الدين. لان السلطة في العلم تنهى العلم و السلطة في الدين تقصد العقيدة.